العواصم المرحلية في الدول الإسلامية وأثرها السياسي والحضاري (دراسة حالة مدينة الزاهرة الأندلسية)

د.حامـــد إبراهيـــم الاحيـــدب
كلية التربية - جامعة الدلنج

مستخلص:

تناولت الدراسة موضوع العواصم المرحلية في الإسلام وأثرها السياسي والحضاري، مع اتخاذ مدينة الزاهرة في الأندلس نموذجًا للدراسة. ويهدف إلى إبراز الدور الذي لعبته هذه العواصم بوصفها أدوات سياسية لإعادة تشكيل مراكز النفوذ داخل الدولة الإسلامية، إلى جانب دورها في تنشيط الحركة العمرانية والحضارية. وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع نشأة هذه العواصم وتطورها، وتحليل السياقات السياسية التي أدت إلى ظهورها. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: أن تأسيس مدينة الزاهرة على يد محمد بن أبي عامر مثّل تحولًا مهمًا في بنية السلطة في الأندلس، حيث انتقل مركز النفوذ الفعلي بعيدًا عن الخلافة الأموية في قرطبة، بما يعكس طبيعة الصراع السياسي في تلك المرحلة. كما أظهرت النتائج أن العواصم المرحلية لم تكن مجرد مراكز حكم مؤقتة، بل أسهمت في إبراز مظاهر التقدم العمراني والتنظيم الإداري، ونافست في ذلك مدنًا كبرى مثل مدينة الزهراء، وأن هذه العواصم أدت دورًا مزدوجًا؛ إذ دعمت القوة السياسية والازدهار الحضاري على المدى القصير، لكنها أسهمت في إضعاف الاستقرار السياسي على المدى البعيد، نتيجة ارتباطها بشخصيات حاكمة وظروف مرحلية. توصي الدراسة بضرورة التوسع في دراسة العواصم المرحلية في التاريخ الإسلامي بمناهج حديثة تجمع بين التحليل التاريخي والدراسة العمرانية، لفهم أعمق لوظائفها السياسية والحضارية.

الكلمات المفتاحية: المدن ، المنصور، الأندلس، الإسلام ، الزاهرة

The Transitional Capitals of Islamic States and Their Political and Civilizational Influence
(A Case Study of the Andalusian city Al-Zahira)

Dr.Hamid Ibrahim Elehadid

Abstract:

This study examines the topic of transitional capitals in Islam and their political and civilizational impact, taking the city of al-Zāhira in al-Andalus as a case study. It aims to highlight the role these capitals played as political instruments for reshaping centers of power within the Islamic state, in addition to their contribution to stimulating urban and cultural development. The study adopts a historical-analytical approach by tracing the emergence and evolution of these capitals and analyzing

the political contexts that led to their establishment. The study reaches several key findings, most notably that the establishment of the city of al-Zāhira by Muhammad ibn Abi Amir represented a significant shift in the structure of power in al-Andalus, as the actual center of influence moved away from the Umayyad Caliphate in Cordoba, reflecting the nature of political conflict during that period. The findings also show that transitional capitals were not merely temporary seats of governance, but contributed to showcasing urban advancement and administrative organization, competing with major cities such as Medina Azahara. The study concludes that these capitals played a dual role: they supported political power and cultural prosperity in the short term, but contributed to weakening political stability in the long term due to their association with specific ruling figures and transitional circumstances. The study recommends expanding research on transitional capitals in Islamic history using modern methodologies that combine historical analysis with urban studies to achieve a deeper understanding of their political and civilizational functions.

Keywords: Cities, Al-Mansur , Al-Andalus, Islam, Al-Zahira

مقدمة:

فتح المسلمون بلاد الأندلس في نهاية القرن الأول الهجري، وكان ذلك في عهد الأمويين، و مرّ تاريخ المسلمين فيها بعدة مراحل حيث عرفت الفترة التي تلت الفتح بعصر الولاة في الأندلس وذلك لأن الأندلس كانت ولاية تتبع للدولة الأموية في الشام، وبعد سقوط دولة الأمويين وقيام الدولة العباسية هرب عبدالرحمن الداخل من الشام ووصل الأندلس، فأعلن انفصاله، وأسس دولة هناك مستقلة عن الدولة العباسية عُرفت بالدولة الأموية في الأندلس. وتعتبر فترة الأمويين في الأندلس من أخصب فترات المسلمين في الأندلس، فقد أسهموا بقدرٍ كبيرٍ في نهضة الحضارة الإسلامية في الأندلس، وذلك بفضل تركيزهم على تطور العلوم المختلفة وبناء المدن وشق الترع والقنوات وغيرها، وقد نقل الأمويون في الأندلس المظاهر الحضارية الإسلامية السائدة في الشرق الإسلامي إلى الأندلس فكانت العمارة الإسلامية هي احدى اتلك المظاهر الحضارية التي نقلها الأمويون إلى الأندلس، ومنذ بداية عهد الأمويين في الأندلس بذلوا جهوداً كبيرةً في تطور المدن الأندلسية فجملّوا مدينة قرطبة ومدينة اشبيلية وغيرهما من المدن، كما قاموا بتشييد عدد من المدن والتي أصبحت معلماً حضارياً شاهداً على تطور الحضارة الإسلامية في الأندلس. ومن هذه المدن مدينة الزاهرة التي شيدها الحاجب المنصور في عهد الخليفة هشام المؤيد.

الحاجب المنصور:

هو الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، كان حسن النشأة، ظاهر النجابة، تتفرس فيه السيادة، سلك سبيل القضاة في أوليته، وطلب الحديث في صغره، وقرأ الأدب،

وقيّد اللغات على البغدادي، فكانت له بوادر حظ من الخليفة الحكم المستنصر، فقربه إليه، وكلفه بمهمات الأمور، فاجتهد وبرز في كل ما قلده به، واضطلع بجميع ما حمله به. فكانت بداية حياته بدايات إدارية بسيطة إلى أن تنفذ في الأمور في عهد الخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، فاستمال الناس بعدة غزوات بدأها بغزو جليقية في رجب سنة 366هـ والثانية إلى حصن مولة فاستولى عليه في شوال من نفس السنة، فحقق انتصارات متتالية على النصارى رفعت من شأنه ومكانته لدى الخليفة هشام المؤيد وكذلك لدى عامة الناس، فقلده الخليفة هشام المؤيد الحجابة،(1) فاستبد بشؤون الدولة وأصبح الرجل الأول فيها وبلغ أوج نفوذه السياسي عام 371هـ/981م حينما بدأ يتخلص من منافسيه، و تلقب بالمنصور وبدأ اسمه يذكر في منابر صلاة الجمعة ، وأصبح هو الشخص الذي تنفذ إليه الأوامر والكتب، حتى صار في الصلاحيات والنفوذ والأهمية مساوياً للخليفة آنذاك هشام بن الحكم الملقب ب(المؤيد)، الذي ظل قاصراً عن أداء واجباته لفعلية، واستطاع الحاجب المنصور أن يحجر الخليفة هشام المؤيد ويمنع تحركاته إلا بمعرفة الحاجب المنصور نفسه ، وظل الخليفة المؤيد إسماً مجرداً في سلسلة خلفاء الأندلس ، ورمزاً تمارس باسمه جميع السلطات لإكتساب الشرعية، وقد اختار له الحاجب المنصور مناسبات معينه للظهور فيها حتى لا يُشاع أن الخليفة قد تم سجنه في قصره وعدم السماح له بالظهور وسط العامة. (2) حتى أطلق المؤرخون على فترة الحاجب المنصور وإبنيه من بعده ب(الدولة العامرية)، لذلك أجمع كل مؤرخي التاريخ الأندلسي أن مدينة الزاهرة التي بناها الحاجب المنصور هي مدينة ملوكية تصنف ضمن حواضر المسلمين الملوكية.

أسباب بناء مدينة الزاهرة:

تدخل مدينة الزاهرة ضمن مجموعة المدن المرحلية التي انبثقت من مدينة قرطبة، وأن أسباب ودوافع بنائها لا تختلف كثيراً عن تلك التي ساعدت في ظهور مدينة الزهراء، وهي تمجيد عصورهم بمنشآت مميزة، دلالة على العزة والسلطان الواسع.(3) فقد تأسست الزاهرة إلى جوار مدينة قرطبة كمدينة قصر بالدرجة الأولى لصاحبها الحاجب المنصور. توحي تسمية مدينة الزاهرة بأنها قد شُيدت لكي تحل محل مدينة الزهراء مدينة الخليفة الناصر وتنافسها في الأهمية، وبالفعل فإن ابن أبي عامر أراد من هذه المدينة أن يكون الناصر الثاني في العظمة والأهمية، وكانت الظروف والأحوال السياسية آنذاك في صالحه وهي التي ساعدته على توسيع نفوذه وصلاحياته، السياسية والادارية وساعدته كذلك على تحجيم دور الخليفة الشرعي، إذ أنه كان يتمتع بصفات متميزة من الدهاء والفطنة والجرأة والحنكة السياسية منذ أن ابتدأ حياته الادارية البسيطة في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتجلت هذه العظمة السياسية والصفات المتميزة بما حققه من انتصارات في جمع الجنود إلى جانبه، والتغلب على تمرد الصقالبة، فتقلد قيادة الجيش وبدأ عدة عمليات عسكرية ناجحة ضد الصقالبة والممالك النصرانية في قشتالة وليون وبرشلونة، فحقق عدة انتصارات ضدهم، كما حافظ على الساحل المغربي من خطر الفاطميين. فكانت هذه النجاحات العسكرية سبباً في تفرده وتسلطه، فاستبد بأمور الدولة، فأخذ في تغيير سير الخلفاء الأمويين في استجرار الأمور لنفسه وسبك الدولة على قالبه.(4) وعلى هذا الأساس جاء تأسيس مدينة الزاهرة أمراً طبيعياً بالنسبة إلى وضع الحاجب المنصور.

ويمكن تشخيص العوامل الأساسية التي دفعت الحاجب المنصور إلى بناء مدينة الزاهرة بدلاً من الزهراء وقرطبة:

أولاً: العوامل السياسية: وتتمثل في ما حققه المنصور بن أبي عامر من انتصارات عسكرية جعلت الخليفة يقربه إليه ويسلمه المناصب العالية، فيقال انه بعد عودته من غزوته الثانية عزل الخليفة الحاجب هشام وقلد ابن أبي عامر المنصب بدلاً منه، كما أنه تقلد الباب بولاية الشرطة والجيش لأنه يقوده، وتقلد الدار لعناية الحرم به، وعندما عاد من غزونه الثالثة زاد له الخليفة الصلاحيات وجعل له الوزارتين ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر وهو راتب الحجابة.(5) ومن الأسباب السياسية الأخرى خوف المنصور بن أبي عامر على نفوذه وسلطانه، فمن الواضح أن تعاظم أمر الحاجب المنصور واستحواذه على مقاليد الأمور يخلق له الأعداء، فأصبح لا يأمن البقاء في مكان واحد مع الخليفة، وهو الذي سيطر على سلطان الخليفة وحجم دوره، وكان الخليفة آنذاك في مدينة الزهراء، ومما زاد من خطورة الموقف وجود موالي الخليفة وحاشيته وجنده وأنصاره ومؤيديه من جانب، وخوف الحاجب المنصور من بروز أعداء جدد من أنصار الحاجب السابق، أو من المنافسين لسلطته، أو ممن يكرهون تنفذه واستبداده من جانب آخر. لذلك فإن بناء مدينة قصر له ولجنده وغلمانه وحرسه يجلب له الراحة والاستقرار والطمأنينة السياسية والعسكرية. لذلك يرى بعض المؤرخين إنه بنى مدينة الزاهرة عندما استفحل أمره، وظهر استبداده، وخاف على نفسه، بعد أن تكاثر عليه حساده، وتحالف عليه واضداده وأنداده، وأياً كان السبب في ترك الزهراء وبناء مدينة الزاهرة، فقد أثبت الحاجب المنصور ببناء مدينته الأميرية أنه لا يقل في القوة والسلطان عن الخليفة الناصر وابنه الخليفة الحكم المستنصر.(6)

ثانياً: العوامل الشخصية: هنالك عوامل شخصية دفعت الحاجب المنصور إلى بناء مدينة الزاهرة تلك المدينة الزاخرة الحصينة والتي تُعد تعبيراً عما بلغه المنصور من نفوذ وعظمة، وهي في نفس الوقت تعكس لمؤيديه وأنصاره القوة والمنعة، كما تعكس لأعدائه ومنافسيه القوة والسيطرة والسطوة مقابل نفوذ الخليفة الشرعي، لذلك سما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتمم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه.(7)

تلك العوامل السياسية والشخصية هي التي أثرت على ابن أبي عامر في أن يختار موضعاً لمدينته بالقرب من العاصمة قرطبة، إذ كانت تقع في طرف من أطراف قرطبة على الجانب الشرقي من نهرها، ولذلك فإنها تقع على الجانب الغربي من مدينة الزهراء، فموقعها يمثل أهمية سياسية أيضاً فهي إزاء عاصمة الخلافة القديمة قرطبة، والعاصمة الجديدة الزهراء. لذلك يعتبر موقعها موقعاً استراتيجياً مهماً.(8)

بناء المدينة ودورها السياسي:

الحقيقة أن بناء هذه المدينة وتطورها قد ارتبط - كما هو الحال في عدد من المدن والعواصم المرحلية – بمؤسسها الحاجب المنصور، لقد قلد الحاجب المنصور في تخطيط مدينته وتوزيع منشآتها ووحداتها ما كان متبعاً في تخطيط مدينة الزهراء، فارتاد بنفسه موضع مدينته

المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وثابر على تسوية أنجادها و تغطية أغوارها، فنسق فيها كل اقتدار مُعجِز، وحشد إليها الصناع والمهرة والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة من الرخام والقراميد والصخور والأخشاب والمرمر، وسربلها بهاءً يرد يرد العيون كليلة، وتوسع في اختطاطها، وتولّع في انتشارها وانبساطها في البسيطة، فامتدت رقعتها في السهل الواقع هناك امتداداً كبيراً، وبالغ في رفع أسوارها، وسورها بأسوارٍ مرتفعة، وفُتحت فيها عدة أبواب منها باب السباع، وباب الجنان، وباب الفتح.. فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغريبة،(9) فكان قصره يمثل مجموعة قصور تتسم بجمال البناء والعمارة والموقع، ومن بين هذه القصور قصر السور، وقصر ناصح، وقصر الزاهي، وابتنى حول المدينة سوراً ، وأسس مجموعة قصور ومنتزهات خارج السور، وابتنى في داخلها المسجد الجامع، الذي ظل باقياً حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، لكننا لا نعلم إن كان موقعه من القصر يشابه موقع المسجد الجامع من القصر الخلافي في مدينة الزهراء أم لا.(10) واشتد مُلك الحاجب المنصور منذ أن نزل بقصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها، حتى كمُل أحسن إكمال، وجاءت في نهاية الجمال، وقد وُصفت المدينة بعد إكتمال بناء قصورها وأبنيتها بأنها نهاية الجمال، نقاوة وسعة وفناء، واعتدال هواء رقّ أديمه، وصفاؤه واعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان.(11) حتى قال فيها الشاعر صاعد اللغوي:

تحفها من فنون الإيك زاهرة قد أورقت فضةً وإذ أثمرت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها يتلو على السمع منها آية عجبا(12)

وأجمعت الروايات على إنه بعد أن انتهى من بنائها الذي استغرق عامين إذ شرع في البناء سنة 368هـ/979م، وانتقل إليها سنة 370هـ/ 981م،(13) إنه انتقل إليها في المرحلة الأولى مع جنده ومؤيديه وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، ثم اتخذ فيها الدواوين والأعمال. وعمل في داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء، بعد ذلك أقطع الإقطاعيات والخطط لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا فيها جليلات القصور، واقتنوا بأكنافها كبار الدور، وتمتعوا خلالها بالمستغلات المفيدة، والمنتزهات المشيدة، وكثرت حولها البساتين والرياض، وأجريت فيها المياه والغدران التي تحف بها الأشجار والأزهار. وأخذ الأهالي يتنافسون في النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو في البناء حوله، حتى اتصلت أرباضها بأرباض العاصمة قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت في باحتها الإمارة. وذلك بعد أن أنشئت أسواقها، وكثرت فيها المرافق الخدمية، وكثرت خيراتها. وازداد الاقبال على بناء الدور والقصور والعمران في أطراف مدينة القصر. وكانت قصور الوزراء والكتاب وغيرهم تقع حول المدينة، بينما كانت بيوت الناس في أطرافها، وقد اتسعت حركت العمران فيها حتى اتصلت بأطراف مدينة قرطبة.(14)

حلت مدينة الزاهرة محل مدينة الزهراء كمدينة إدارية، ومركزاً للسلطة، وقاعدة للحكم، حيث يحلها الأمير صاحب السلطة والنفوذ، وتجمع إليها الدواوين، كذلك صارت مركزاً للحكم وقاعدة للجيش، فعين عليها المنصور والياً للاشراف المحلي عليها على نحو ما كان متبعاً في مدينتي الزهراء وقرطبة، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤوس أمرائه، وجلوس العيان والشيوخ، وندب إليها كل ذي خُطّة بخطته، ونصب على بابها كرسي شرطته وجعلها مقراً لرئاسة شرطة الدولة، وقد كتب إلى مدن الأندلس وولاياته بأن تحمل إلى مدينة الزاهرة أموال الجبايات، وأن تكون هي لا

الزهـراء مقصـد الوفـود والرسـل، وينتابهـا طـلاب الحاجـات، فاحتشـد النـاس حولهـا، وحـذر أن يعـوج عنهـا إلى بـاب الخليفـة عائـج، فأصبحـت الزاهـرة مركـزاً للاحتفـالات السياسـية الكـبرى، والاسـتقبالات الملوكيـة، فاسـتقبل فيهـا المنصـور ملـك بنبلونـة النـصراني (شـانجو) الـذي جـاء زائـراً ومسـتصرخاً بعـد أن حاربـه المنصـور فجـاء طالبـاً للعفـو والموادعـة، وقـد اهـدى غبنتـه للمنصـور فتزوجهـا وانجـب منهـا إبنـه عبدالرحمـن الملقـب ب(شـنجول)، فاسـتقبل المنصـور موكبـه في قـصر الزاهـرة، فاندهـش شـانجو مـن قـوة المسـلمين، وجـمال زيهـم، ونباهـة أسـلحتهم، وكـثرة عددهـم، فمـر موكبـه بـين صفـين مـن الصقالبـة والوصفـاء، وجلـس المنصـور عـلى سريـره، وحولـه وزراؤه وأكابـر رجـال دولتـه، فبهـت شـانجو مـن عظمـة المجلـس وروعـة الموقـف، وبهـره مـا عاينـه مـن فخامـة السـلطنة، ثـم أجلسـه المنصـور عـلى كـرسي مـن ذهـب، وبعـد نهايـة الجلسـة أفـرد لـه أحـد قصـور الزاهـرة فأقـام فيـه.(15) كـما زارتهـا شـخصيات أخـرى عديـدة في فـترات متلاحقـة. فـكان مـن نتائـج هـذا الإجـراء عـزل الخليفـة في قـصره بالزهـراء دون سـلطة. وقـد عطـل الحاجـب المنصـور قـصر الخليفـة هشـام المؤيـد، وجعلـه بمعـزل عـن سـامعه ومطيعه، و جـدّ في ألاّ يصـل إليـه خـبر، وجعـل فيـه ثقـة مـن صنائعـه يضبـط القـصر، ويبسـط فيـه النهـي والأمـر، ويـشرف منـه عـلى كل داخـل، ويمنـع مـا يحـذره مـن الدخـول، ورتـب عليـه الحـراس والبوابـين، والسُـمار والمنتابـين، يلازمـون حراسـة مـن فيـه ليـلاً ونهـاراً، ويراقبـون حركاتهـم سراً وجهـاراً، وقـد حجـر عـلى الخليفـة كل تدبـير. وأقـام الخليفـة هشـام المؤيـد مهجـور الفنـاء، محجـور الغنـاء، خفـيّ الذكـر، عليـل الفكـر، مسـدود البـاب، محجـوب الشـخص عـن الأحبـاب، لا يـاره خـاص ولا عـام، ولا يخـاف لـه بـأس، ولا يرجـى مـن إنعـام، ولا يُعهـد منـه إلا الاسـم السـلطاني في في السّـكة والدعـوة في المنابـر. وقـد نسـخه الحاجـب المنصـور ولبـس أُبهتـه، وطمـس بهجتـه، وأغنـى النـاس عنـه، وأزال أطماعهـم منـه، وصيرهـم لا يعرفونـه.(16) فأصبحـت الدولـة تُـدار مـن مدينـة الزاهـرة، التـي أضحـت مدينـة رائقـة، والسـعود بلبتهـا متناسـقة، تراوحهـا الفتـوح وتغاديهـا، وتجلـب إليهـا منكسرة أعاديهـا، ولا تزحـف منهـا رايـة إلاّ إلى فتـح، ولا يَصـدر عنهـا تدبـير إلا نجـح. وذلـك أن الحاجـب المنصـور أشـاع وسـط النـاس أن الخليفـة هشـام المؤيـد قـد فـوّض إليـه أمـر الدولـة وإدارتهـا، وأنـه فـرغ نفسـه للعبـادة والذّكـر، فانبـث ذلـك وسـط الرعيـة اطمأنـوا إليـه، مـع سرعـة بطشـه، وقـوة ضبطـه. وبلـغ الحاجـب مـن المنصـور مبلغـاً لم يبلغـه قـط متغلـب عـلى خليفـة، لأنـه احتـوي عـلى الملـك كلـه، وصـيّر الخليفـة قبضـةً في يديـه.(17)

سـنة 392هـ وتـرك بهـا رقـم كبـير مـن الأمـوال، وحـوالي عـشرة آلاف مـن الفرسـان المرتزقـة، ومثلهـم مـن أجنـاد الثغـور، وقـد تـرك تاريخـاً خالـداً مـن الجهـاد إذ غـزا سـبع وخمسـين غـزوة كلهـا غزاهـا بنفسـه، وكان في أغلبهـا يشـكو مـن المـرض ولكنـه يتمالـك نفسـه ويجاهـد. وخلفـه عـلى الحجابـة ابنـه عبدالملـك بـن المنصـور بـن أبي عامـر الملقـب ب(المظفـر) وسـيف الدولـة، الـذي نفـذت كتبـه إلى أطـراف الأندلـس، فاستوسـق لـه الأمـر، واجتمـع النـاس عـلى حبـه، وقـد سـلك منهـج والـده في الجهـاد والاسـتئثار بالسـلطة، حتـو وفاتـه سـنة 399هـ فخلفـه عـلى الحجابـة أخـوه عبدالرحمـن بـن المنصـور المعـروف ب(شـنجول)، والملقـب ب(المأمـون نـاصر الدولـة) وقـد أقـره الخليفـة عـلى الحجابـة فدخـل قـصر الزاهـرة، واحتفـى بـه النـاس، لكنـه أسـاء إدارة الدولـة، فغضـب عليـه العامـة، ورغـم ذلـك أقنـع الخليفـة هشـام المؤيـد أن يوليـه العهـد مـن بعـده، فـولاه الخليفـة عهـده، وذلـك لضعـف الخليفـة هشـام المؤيـد، وسـوء نظـره، ونقصـان بصيرتـه، فانحـرف أكابـر رجـال الأندلـس عـن عبدالرحمـن شـنجول، وقـد خـرج مـن الزاهـرة للقتـال في نفـس السـنة، فعلـم أن محمـد بـن هشـام بـن عبدالجبـار بـن النـاصر

قد قاد ثورة ضد الخليفة هشام المؤيد، كانت نتيجتها عزل الخليفة هشام المؤيد، وتولية محمد بن هشام بن عبدالجبار بالخلافة، وقد عزم الخليفة الجديد على عزله من الحجابة، فرجع إلى قرطبة غير أن الخليفة محمد بن هشام قد ظفر به وقتله، وكانت تلك نهاية الدولة العامرية، ونهاية مدينة الزاهرة.(18)

انحلال مدينة الزاهرة:

وكما هو متوقع في أمثال هذه النماذج من المدن الشخصية ، فإن أوج ازدهارها وأهميتها وفعاليتها تحددت بالفترة التي ساد فيها مؤسسها الحاجب المنصور ، وتوسع فيها نفوذه السياسي والعسكري، وأنها لهذا العامل لم تعمر طويلاً بعد موته. لقد كانت نهاية مجد مدينة الزاهرة متوقعة لأنها في الأصل نشأت بفعل العامل السياسي والشخصي المتمثل بظهور الحاجب المنصور واتساع نفوذه ، وأن الحاجب المنصور لم يكن يهدف من وراء تأسيسها إلى بناء مدينة تستند إلى أسس وقواعد متينة، وإنما أرادها لتحقيق أهداف سياسية شخصية محضة، ليضاهي بها مدينة الزهراء، وليقلل من أهمية وعظمة مدينة الزهراء عاصمة الخليفة الشرعي، ولما كان الحاجب المنصور يفتقر إلى هذه الشرعية السياسية بأنه ظهر وبرز على مسرح الأحداث لما يتمتع به من خصائص وصفات شخصية ونتيجة لعدة ظروف سياسية وإدارية كانت قائمة آنذاك، لذلك كانت مدينته مرتبطة إرتباطاً عضوياً بوضعه السياسي. وعلى هذا الأساس بلغت الزاهرة أوج تطورها إبان الفترة التي كان يتمتع بها الحاجب المنصور بالقوة والسيادة والعظمة. بينما انحسرت مكانتها بعد وفاته، وضعفت مكانتها أكثر خلال فترة خليفته.(19) وفي عشية نفس اليوم الذي أعلن فيه الأموي الثائر محمد بن هشام بن عبدالجبار ثورته ضد هشام المؤيد، أي عشية يوم الثلاثاء 16 جمادى الآخرة سنة 399هـ/ 15فبراير 1009م، تعجل عدد غفير من الناس بإشارة محمد بن هشام إلى مدينة الزاهرة لاحتلالها. وأنفذ معهم عدداً من أصحابه لقيادتهم، وكان في الزاهرة آنذاك جمع غفير من الناس منهم أبوعمر بن حزم ، وعبدالله بن مسلمة حاكم مدينة الزاهرة، من قبل عبدالرحمن بن أبي عامر، وابن جهور الوزير الذي أصبح فيما بعد رئيساً لدولة قرطبة في عصر دويلات الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، وجماعة من الفقهاء والوزراء الصقالبة ونفر من الجند والخزان والكُتاب. علم الوزراء العامريون في الزاهرة بخبر الهجوم على مدينتهم، فعمد حاكمها إلى تحصين أبوابها وأسوارها، وجمع ما لديه من الجنود وأمرهم بالاستعداد التام لصد أي هجوم يقع على المدينة. وفعلاً وصل المهاجمون إلى أطراف مدينة الزاهرة فأحاطوا بها من كل جوانبها وأخذوا يحاولون الدخول إليها، ولكن العامريون هجموا عليهم هجمة قوية فتراجعوا عن أسوار المدينة. فكانت تلك بداية لتخريب المدينة.(20) وكان ذلك إيذاناً بخراب مدينة الزاهرة، إذ أتى عليها الخراب بعد حوالي ثلاثين عاماً فقط من بنائها، وبشكل أخص خلال الاضطرابات السياسية التي برزت إبان فترة عبدالرحمن بن المنصور المعروف ب(شنجول)، ففي سنة 399هـ/1008م نجح مناوؤه في مهاجمة المدينة واقتحامها، والاستحواذ على ما فيها من خزائن، وهدم ما أمكن هدمه من المدينة وسورها.(21) وذلك أنه عندما تم الأمر لمحمد بن هشام وبيعته بالخلافة، صمم على احتلال مدينة الزاهرة للقضاء على آخر مقاومة للعامريين، فخاطب الخليفة محمد بن هشام الناس وحضهم على احتلال الزاهرة، وأعطاهم السلاح، ووعدهم بالمكافآت، وعين على رأسهم حاجبة عبدالجبار بن المغيرة، وكان الهجوم قوياً هذه المرة، فقد اجتمع إلى الخليفة محمد بن هشام من المهاجمين إضافة إلى أتباعه وأقربائه جمع كبير من العوام وأهل البوادي والأطراف، فدارت مناوشات بينهم والمدافعين عن المدينة الذين لم يظهروا أي شجاعة واخلاص

في قتالهم، بل كان دفاعاً ظاهرياً باطنة خيانة أصحاب فضلهم العامريين. ولما رأى ذلك سكان مدينة الزاهرة، ومن فيها من الوزراء والصقالبة، فت في عضدهم، وأرسلوا إلى الخليفة محمد بن هشام يعرضون عليه الأمان مقابل تسليم المدينة، فكتب لهم أماناً بخط يده بعد أن وبخهم وعفا عنهم فاستسلموا بأجمعهم، واستلم عبدالجبار بن المغيرة المدينة.(22) والظاهر أن أعمال النهب كانت شاملة وسريعة بحيث أدى ذلك إلى إندثار آثارها وصارت أنقاضها من مواد بناء وأخشاب ومرمر وأبواب وأمتعة تباع في الأسواق، وقيل أن مواد بنائها وصلت إلى مختلف النواحي حتى قيل أنها بيعت في أسواق بغداد. تلك كانت الضربة القاصمة للمدينة ومعالمها فتم نقل كل ما كان موجوداً في قصر مدينة الزاهرة ، ولم يكتفِ بذلك، إنما أمر بهدمها وهدم أسوارها، وقلع أبوابها ونقض قصورها وطمس آثارها ومعالمها، وللاسراع في هذا العمل جمع الخليفة محمد بن هشام بن عبدالجبار الأيدي العاملة الكثيرة، وذلك لأنه أراد هدمها فيقضي بذلك على جميع المخاوف من عودة عبدالرحمن بن المنصور ثانية، حتى لا يسطو كسطوة والده، إذ أن المدينة كانت رمزاً لنفوذ وسيادة عبدالرحمن بن المنصور. وبالنظر إلى ذلك فإن محمد بن هشام أباح لمؤيديه تخريب المدينة واقتلاع المرمر من قصورها ودورها، فانتشر الناس في أنحاء المدينة ينهبون ما وقعت عليه أيديهم في خزائن الكسوة، وما وجدوه من الفراش والأمتعة والطيب والحُلية والذخائر، حتى أنهم اقتلعوا الأبواب والمرمر والخشب، وحاول عبدالجبار بن المغيرة وأصحابه منعهم عن ذلك، ولم يفلحوا في ذلك.(23) واستمر التخريب عدة أيام، فبلغوا من تدميرها في عدة أيام قلائل ما لم يقدر ان يُبلغ في مدة طويلة، فكانت نهاية المدينة إذ عفا رسمها فأصبحت بلقعاً كأن لم تغنِ بالأمس.(24) ووضع الخليفة محمد بن هشام يده على الأموال والنفائس المخزنة فيها ويقال ان الذي وصل إلى محمد بن هشام من أموال مدينة الزاهرة يقدر بحوالي خمسة مليون وخمسمائة ألف (5.500.000) ديناراً، إضافة إلى مليون ونصف المليون (1.500.000) ديناراً من الذهب، إضافة إلى الخوابي المليئة بالورق والتي وجدت مدفونة في الأرض.(25) ولما فرغ من نقل ما في الزاهرة، أمر باطلاق النار عليها، وهدم أسوارها، فلبى الناس نداءه، وأسرعوا إلى تخريبها وطمس معالمها، فتبدلت المدينة من زاهر اسمها وزالت سعادتها وجاء زمان نحسها، وما علم الناس مدينة بالأندلس كانت أعظم بركة في الجهاد والمال منها وأبهج عزة ، وشدة مملكة، وأكثر جيوشاً وحاشيةً ، وأتم سعادةً، وأطيب بقعةً ، من هذه المدينة الزاهرة، حتى أذن الله في خرابها في الوقت المحدود للأمر المعدود.(26) وخرجت الزاهرة ومضت كما الأمس الدابر، وخلت منها البيوت الملوكية، والعساكر واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً وأبدلت بأيام الترح عن أيام المرح والصفا، كأن لم يكن فيها مدينة، مع إنها كانت من أعظم بلاد الإسلام وأجملها.(27)

خاتمة:

وختاماً يمكن القول إن مدينة الزاهرة ومن قبلها مدينة الزهراء تعدان نموذجين واضحَين من نماذج مدن القصور أو المدن المؤقتة التابعة للمدينة الأم قرطبة، والتي تُعرف لدى المؤرخين بالعواصم المرحلية، لذلك فإن مدينة قرطبة ظلت هي المدينة المهمة بعد انحلال أحوال تلك المدن المؤقتة. ويمكن القول أيضاً أن بناء مدينة الزاهرة لتحل محل العاصمة المرحلية السابقة مدينة الزهراء، والعاصمة الرئيسية قرطبة، يدل على عظمة ومكانة الحاجب المنصور بن أبي عامر وسطوته وتوسع صلاحياته، وتنفذه في الدولة، إذ لم يبدِ الخليفة هشام المؤيد إي اعتراض على أفعال الحاجب المنصور، ولم تذكر له المصادر أي تحفظ على قرارٍ اتخذه الحاجب المنصور، كما

تدل هذه المدينة على الرخاء الاقتصادي الذي تعيشه الأندلس في عصر الخلافة الأموية، والتطور الحضاري الذي بلغته خلال هذه الحقبة، فإنشاء المدن الذي يتطلب إحضار المهندسين والبنائين، والنجارين والحدادين، وغيرهم من الفعلة، أصبح لا يثير أي مخاوف لدى الأمويين في الأندلس في هذه الحقبة. لذلك ظهرت مدينة الزاهرة كتحفة معمارية هندسية رائعة الجمال ، عكست مظاهر وتطور حضارة المسلمين في الأندلس. ولكن مثل هذه المدن المرحلية لن تعمر طويلاً، فكان خرابها بعد حوالي ثلاثين عاماً فقط من إنشائها، وكان يمكن لها أن تظل أكثر من هذه المدة بكثير، ولكنها الفتنة التي أطلت برأسها، بعد زوال حكم الخليفة هشام المؤيد، فجاء الخليفة محمد بن هشام بن عبدالجبار بخطة انتقامية ضد الدولة العامرية – كما أطلق عليها المؤرخون- فكانت الدعوة منه لتخريب المدينة وتشجيع الأهالي على تدميرها والاستفادة من موادها، وأخيراً يمكننا القول أن ذلك الخراب يرجع إلى حد كبير لارتباط المدينة بمؤسسها الحاجب المنصور والذي بعد وفاته فقدت المدينة أهميتها، ولم تجد من يحفظ لها مكانتها بعده.

النتائج:

1. أظهرت الدراسة أن العواصم المرحلية في الإسلام كانت أداة سياسية لإعادة توزيع السلطة، كما في إنشاء مدينة الزاهرة على يد محمد بن أبي عامر بعيدًا عن مركز الحكم في قرطبة، بهدف تعزيز نفوذه السياسي.
2. بينت النتائج أن تأسيس عاصمة جديدة يعكس تحوّلًا في البنية السياسية للدولة، حيث جسدت الزاهرة انتقال السلطة الفعلية من الخلافة الأموية إلى الحجابة العامرية.
3. كشفت الدراسة أن العواصم المرحلية أدت دورًا حضاريًا مهمًا من خلال تنشيط العمران وبناء القصور والمؤسسات، مما جعلها مراكز إشعاع حضاري رغم طابعها المؤقت.
4. أوضحت النتائج أن هذه العواصم استُخدمت كوسيلة لإبراز الهيبة والقوة، من خلال التخطيط العمراني الفخم، كما يظهر في المقارنة بين الزاهرة ومدينة الزهراء.
5. أكدت الدراسة أن العواصم المرحلية غالبًا ما ارتبطت بشخصيات قوية، مما جعل استمرارها مرهونًا ببقائهم؛ لذلك تراجعت الزاهرة سريعًا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر، وانتهى دورها بزوال نفوذ العامريين.

التوصيات:

1. ضرورة التوسع في دراسة العواصم المرحلية في التاريخ الإسلامي بمناهج حديثة تجمع بين التحليل التاريخي والدراسة العمرانية، لفهم أعمق لوظائفها السياسية والحضاري.
2. الاهتمام بإجراء دراسات مقارنة بين مدينة الزاهرة وغيرها من العواصم مثل مدينة الزهراء، لإبراز أوجه التشابه والاختلاف في الأهداف والتخطيط والدور السياسي.
3. الدعوة إلى تكثيف التنقيبات الأثرية والبحوث الميدانية في مواقع العواصم الأندلسية، خاصة المرتبطة بمدينة محمد بن أبي عامر، للكشف عن معالمها العمرانية بشكل أدق.
4. شجيع الباحثين على دراسة أثر العواصم المرحلية في استقرار الدولة أو تفككها، وربط ذلك بالسياقات السياسية التي نشأت فيها مثل تجربة قرطبة في أواخر العصر الأموي.

المصادر والمراجع:

(1) السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج1، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، 1997م، ص258.

(2) ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب السلماني، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ص76.

(3) خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2000م، ص207.

(4) ابن عذارى، أبوالعباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في إختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج2، دار العرب الإسلامي، تونس، 2013م، ص272 273-.

(5) الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج2، مؤسسة لبنان للنشر، بيروت، 1994م، ص267.

(6) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج2، ص275.

(7) عبدالجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2001م، ص450.

(8) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب، ج1، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م، ص13.

(9) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج2، ص268.

(10) عبدالجبار ناجي، مرجع سابق، ص451.

(11) الحميري، محمد بن عبدالمنعم، مصدر سابق، ج2، ص384.

(12) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج2، ص277.

(13) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج2، ص275.

(14) السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سابق، ج1، ص259.

(15) السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سابق، ج1، ص261.

(16) السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سابق، ج1، ص269.

(17) المقري، مصدر سابق، ج1، ص581.

(18) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج2، 334.

(19) عبدالجبار ناجي، مرجع سابق، ص453.

(20) خالد الصوفي، تاريخ العرب في اسبانيا، دار الشرق، حلب، ص143.

(21) المقري، مصدر سابق، ج2، ص121.

(22) النويري, شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب, ج1، القاهرة, مطبعة دار الكتب المصرية, القاهرة, 1936م، ص74.

(23) خالد الصوفي، مرجع سابق، ص147.

(24) ابن عذارى ، مصدر سابق، ج3، ص64.

(25) ابن الخطيب، مصدر سابق، ص111.

(26) ابن عذارى، مصدر سابق، ج3، ص74.

(27) المقري، مصدر سابق، ج2، ص122.